مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

بلاغة النّسَق القرآني في الآيات الكونية عند صالح فاضل السامرائي

The Eloquence of the Quranic Pattern in the, cosmic verses at Salah Fadhel Samarrai Al-

الطالب. يزيد حمودي
dinislam512@yahoo.com
أ. د رابح دوب
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

تاريخ الإرسال: 04_12_2018 **تاريخ القبول:** 24_11_2019

الملخـــص:

يهدف البحث إلى إبراز أهميّة النّسَق القرآني في تشكيل ملامح النّظريّة البيانية عند صالح فاضل السامرائي، ومدى قدرة هذه النظرية على فهم دلالات الآيات الكونيّة ومقاصدها؛ ومِن أجل إبراز هذه الرؤية وجبتْ الاستعانة بالمنهج الاستقرائي من خلال تتبع مواطن ورود الآيات الكونية في كتب السامرائي، إلى جانب المنهج التحليلي في إطار تحليل فكرة النّسق القرآني وتجلياتها في دراسات القدامى والمُحدثين عمومًا، وفي مؤلّفات صالح فاضل السامرّائي على وجه الخصوص، ثمّ مقاربة موضوع الظواهر الكونية وفق معالم فكرة النّسق، وخلُص البحث إلى أنّ فهم موضوعات القرآن – ومنها الظواهر الكونية – لا يتمّ إلا في إطار النّظر الكلّي للقرآن، ومراعاة خصائص النّظم وقوانين الصّياغة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، النسق، الآيات الكونية، الآية، السورة.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

Abstract:

The aim of the research is to highlight the significance of the Quranic format in shaping the characteristics of the grafical theory in favor of Al-samarrai, and its ability to understand the meanings of the cosmic verses and their purposes. After The analysis of the idea of the Quranic format in the works of salah fadhel Al-Samarrai, we concluded that the study of the topics of the Quran, among them the universal verses, does not happen unless within the total consideration of the Quran and the observance of its laws drafting characteristics.

Keywords: eloquence, pattern, cosmic verses, verse, Sura.

المقدمـــة:

يتأسس جوهر النظرية البيانية في القرآن على فكرة النظم وما يتّصل بها من مباحث أفرزها الفكر البلاغي العربي منذ عهد مُبكّر من تاريخ الدراسات القرآنية، واختلفت أساليب وأشكال التعبير عن هذه الفكرة باختلاف مرجعيات أصحابها ونظرتهم إلى القرآن، ومنذ لحظة التلقي الأولى أدرك أهل اللسان العربي خروج القرآن عن نسقهم الفكري والبياني، وأقرّوا بما لا يدَع مجالا للشك أنّ هذا الخطاب لن يكون إلاّ ذا مصدر إلهي، واعترفوا بسموّه نظما وتأليفا، وخروجه عن كافة الأنساق والقوانين التي تحكم النّصوص ذات النّشأة الأرضية، وليس هذا فحسب بل يظهر اعترافهم أكثر بتفوق القرآن حين سارعوا إلى دعوة النّاس إلى صم آذانهم عن سماعه حين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

وما هو مُعتبرٌ في هذا الإطار أنّ كل تأثّر لا بدّ له من فهم يسبقه، فعلى قدر الفهم يكون التأثر، وإذا لم يكُن تأثرهم نابعًا من إدراك تفوّق القرآن على مستوى الصياغة والتأليف فمن أي جهة كان إذًا؟

وقُدّمت في هذا المجال – فيما بعد– مقولات هامة، واصطلاحات دقيقة اتضحت معها ملامح النظم القرآني – مع القدامى ومع المُحدثين– وتأتي المادة التي قدّمتها جهود فاضل صالح السامرائي في طليعة الدراسات التي اشتغلت على نظم القرآن وتماسك بنيته، وساهمت إلى حد بعيد في الانتقال من النظر الجزئي إلى النّظر الكلي إلى لقرآن، ومع أنّ الظواهر الكونية – كونها جزءًا هامًّا من الخطاب– قد أخذت بقسط وافرٍ على مسرح الدراسات القرآنية إلاّ أنّ النّظرية الكونية القرآنية لم تتحدّد معالمها بعد، على الرغم من كثرة الملتفين من حولها خاصة في العصر الحديث، واختلفت المناهج والمقاصد من وراء ذلك واختلفت معها المرجعيات والقواعد التي تحكم هذا النّوع من التوجّه، فمالت أغلب الدراسات في هذا المجال إلى محاولة إثبات السّبق العلمي للقرآن، من خلال الاطلاع على ما أفرزته السّاحة العلمية من نظريات وحقائق علميّة، ونظرًا لأهميّة العنصر اللغوي في كل قراءة للنّص القرآني؛ فإلى أي مدى يُمكن المراهنة على أدوات اللغة والبيان من أجل فهم دلالات الظواهر الكونيّة في القرآن والوقوف على مقاصدها الكبرى؟ وهل يُمكن أن تُتّخذ النظرية البيانيّة عند السامرائي مثالاً يُحتذى، أم أنّ دراسة الظواهر الكونيّة بحاجة إلى تطوّر الأدوات والمناهج بصفة دوريّة مُستمرّة؟

1 – النسق القرآني: المفهوم والمصطلح.

إنّ تلقي النّص الجديد وما صاحبه مِن رؤية جديدة للكون والوجود واللغة – أيضًا– يؤكّد أنّ كل محاولة لفهم النص لا بد أن تمر عبر أدوات اللغة وقوانينها في التعبير، وكلّ مَن يطّلع على المحاولات الأولى لتلقي الخطاب يجد إدراك الأوائل لأهمية

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

العنصر اللغوي في فهم القرآن، وإن لم تتبلور تلك الاهتمامات في شكل نظرية لغوية محددة المعالم.

و لم تكن فكرة النسق غائبةٌ عن ذهنية من عاصر نزول القرآن، بحكم قربهم من روح اللغة ومنطقها في التعبير، ومعرفتهم الواسعة بأساليب العربية وقوانينها في النظم والتركيب، وأدركوا تميّز القرآن من هذه النّاحية منذ اللحظة الأولى لتلقي الخطاب القرآني، وأنه ليس شعرًا ولا كهانة ولا شيئا آخر من قبيل ما تعارف عليه البشر، وفي ذلك اعتراف صريح باختلاف البنية القرآنية وقدرتها على حمل مدلولات ومفاهيم لا يتيسّر لكل قدرة بشرية – مهما كتب لها من العبقرية والتفوق- أن تمسك بها أو تُعبّر عنها.

وإن لم تظهر التسمية المُعبّرة عن فكرة النّسق، فمفهومها حاضر في أذهانهم، لأنّ التسمية أو المصطلح إنما يعبران عادةً عن مفهوم أو مقولة متقدمة لم تستطع المصطلحات المتداولة الاستجابة لها والتعبير عنها بخصائصها الجديدة.

وتبلور هذا الاهتمام- فيما بعد- في ظل البحث عن الوجه الذي كان به القرآن مُعجزًا من ناحية، وفي ظل الرّد على الطاعنين في لغة القرآن ونظمه وأساليبه في التعبير من جهة ثانية، فظهرت مع الجاحظ ومع القاضي عبد الجبار المعتزلي وغيرهما مصطلحات هامّة تعبّر عن هذا المفهوم مثل (النّظم، والضّم...)

ويعد القاضي عبد الجبار من أوائل من أدرك تفرد الخطاب القرآني من هذه النّاحية فقال: «اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضمِّ على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضمِّ من أن يكون لكل كلمة صفةٌ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بـــالإعراب الذي له مدخل فيه،

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابعٌ، لأنه إمَّا أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها» [1].

وسار الخطابي في سياق حديثة عن فكرة الإعجاز مُستحضرًا خصائص البنية القرآنية وتفوقها على سائر ما عهدته النصوص الأخرى، وعلّل عدم استطاعة العرب أن يأتوا بمثل القرآن بقوله: « وإنما تعذّر على لبشر الإتيان بمثله لأمور: منها أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تُدركُ أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلامٍ مثله» [2]

ونقل السيوطي آراءً هامّة بيّن من خلالها إدراك أهل اللغة وعلوم القرآن أنّ التجديد الذي أحدثه القرآن على مستوى اللغة هو أحد أهم جوانبه المُعجزة ــ إن لم يكن أهمها على الإطلاقــ ومن ذلك ما نقله عن ابن سراقة في قوله: « اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرة كلّها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره، فقال قومٌ: هو الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الرصف والنّظم، وقال آخرون: هو كونه خارجًا عن جنس كلام العرب من النّظم والنّثر، والخطب، والشعر، مع كون

[1]– القاضي عبد الجبار المعتزلي: المغني في أبواب التوحيد والعدل، ت: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ، ص: 199

[2]– الرماني والخطابي والجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، رسالة الخطابي ص: 27.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيلٌ غير قبيل كلامهم، وجنسٌ آخر متميّز عن أجناس خطابهم، حتى إنّ من اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهب رونقهُ، ومن اقتصر على حروفه وغيّر معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه»[1]

ومع أنّ القرآن نزل بلسان العرب وراعى قواعده وخصائصه التعبيرية إلا أنّ تفرده «يأتي من تجاوز هذه اللغة والقفز فوق محدودية ألفاظها وتراكيبها وسبائكها وصورها وعلاقاتها اللغوية، كما يأتي من تطوير أعرافها، ثم قواعدها، من غير إلغاء هذه القواعد، وفتح الباب أمامها للمزيد من التطور والغنى، ومنتجًا أبعادًا وآفاقًا واسعة لم يكن أصحاب هذه اللغة يحلمون بها أبدًا»[2]

ولا بد من الإشارة إلى أنّ كل مضامين القرآن وموضوعاته مقترنة أساسًا بمفهوم الألوهية، بحيث لا ترد مجرد وحدات جامدة أو مفاهيم معزولة «بل الأهم فوق ذلك أن يتضمّن حياتها ومعناها السياقي كما تم استعمالها في القرآن، من هنا وعلى الرغم من أن المصطلح "الله" كان مستعملا عند العرب قبل الإسلام ليس فقط كإله بين الآلهة بل حتى كإله أعلى في تراتبية الآلهة فإن القرآن أحدث تغييرا جوهريا بالغا في رؤية العرب للعالم

[1]– جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القران، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي: بيروت، ت ط: 1425هـ–2004م، ص: 718

[2]– أحمد بسام ساعي: المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي– فرجينيا: الولايات المتحدة الأمريكية، ط1: 1436هـ 2015م، ج1،ص: 90

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

تحديدا عن طريق تغيير الاستعمال السياقي لهذا المصطلح بتحميله معنى جديدا وذلك باستبعاد كل الآلهة وجلب مفهوم الله إلى مركز الوجود»[1]

والالتفات إلى مثل هذا البعد في مقاربة الخطاب القرآني يحتاج إلى استشارة الجهود العلمية كافة — قديمها وحديثها– من أجل بناء منهج شامل ومتكامل يُيسر سبيل الاهتمام بالبعد النصي للقرآن، وما يندرج في إطاره من مفاهيم على نحو: الربط والبناء والتضام والتماسك والاقتران، والتناسق والتناسب...وغيرها من المفاهيم التي تصب في هذا الإطار.

ولا شك أنّ هذه الكلمات أو المفاهيم لا توجد هكذا ببساطة في القرآن بحيث تكون كل منها معزولة عن الأخرى «بل يتوافق بعضها مع بعض بإحكام وتستمد معانيها العيانية مِن نظام العلاقات المحكمة بينها على وجه الدقة... وبذلك فإنها تؤلف في النهاية مجموعا كليًّا مُنظّمًا وشبكة غاية في التعقيد والتركيب من التداعيات المفهومية»[2]

والسبيل إلى البيان القرآني الشامل المتكامل «لا يتم إلاّ بالاقتران المتعدد، ولا يتحقق بالاقتران المفرد، ويعدّ الاقتران المتعدّد مظهرا من مظاهر هيمنة القرآن على اللغة العربية وقواعدها وأنّه حاكم عليها غير محكوم بها، ولسان القرآن الكريم نسق لغوي مكتمل مُصمَّم على أفضل هيئة ومُعَدّ لكي يتلقاه المتلقي ويقرأه القارئ وفق القدرة اللغوية البشرية»[3]

[1]– توشيهيكو إزوتسو، الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة: هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ط1: 2007م، ص: 20.

[2]– الله والإنسان في القرآن: ص: 34.

[3]– عبد الرحمان بودرع: مِن أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي، المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، ص: 429.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

ولن يتم ذلك إلا بالانتقال من القراءة الجزئية القاصرة إلى القراءة الكلية المترابطة، التي تقود إلى إدراك وجوه التناسب والروابط بين كلمات الآية وآيات السورة وسور القرآن كله، بحثا عن وحدة النّص وتركيبته الجامعة، إذ أنّ ذروة الاتصال بين المعاني في النص القرآني كامنة في ما يبدو منفصلا منها، وهذه المبادئ المنهجية تكشف في مجملها عن خصائص الأسلوب وقوانين النظم والتركيب.

فالتغيير لم يطرأ على الألفاظ القرآنية وحدها «بل تجاوزها إلى علاقات هذه الألفاظ فيما بينها ومواقعها في سياقها واستخداماتها والعناصر والأعراف اللغوية والنحوية والخيالية الجديدة التي تنتظمها، وكذلك الوحدات اللغوية الكاملة التي تشكلت في النهاية من تلك الألفاظ والعلاقات والأعراف، وهذا كله يفسّر تجاور عدد المواقع الإعجازية الجديدة في كل سورة لعدد ألفاظ هذه السورة»[1]

ولقد اشترط علماء اللغة والتفسير الاطلاع على مباحث اللغة والبلاغة ليكتمل النظر في الجانب اللغوي من النّص القرآني بدءا بالحرف ومرورا باللفظة وما يميزها من ظواهر التصريف والاشتقاق وغيرها، ثم علاقة الكلمات فيما بينها وما تشكله من نظم داخل سياقها العام.

وأدرك أهل اللغة والتفسير أنّ الجملة عنصر أساس في إعراب الكلام، وتحليله «وبنوا دراسة الكلام على أساس الوحدة الجملية... والحقيقة أنّ بنية القرآن اللغوية ليست قائمة على الوحدة الجملية، ولكنها قائمة على وحدة الآية، والآية ذاتها ليست وحدة نحوية أو دلالية، ولكنها لبنة في صرح البناء القرآني المعجز»[2]

[1]– المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي، ص:55

[2]– ينظر: من أصول التفسير اللغوي إلى البناء النصي، ص: 427

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

وبالتأمّل في القرآن يمكننا أن نجد فيه مفهوم البنية كأفضل مثل لها، فهو نسق واحد مترابط ترابطاً عقلانياً تعبر عنه روابط كثيرة بين آياته وسوره، وكمنطلق في الإسلام فإن للقرآن هيمنة مطلقة على ما دونه من نصوص، وأدق ما يمكن أن يكشف هذه الهيمنة هو بنية القرآن كنظام محكم.

وعندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب فجّر ما بداخلها من طاقات وبثّ فيها كل القدرات والإمكانات التي تمكّنها من استيعاب الخطاب القرآني، ولو لم يترل بها لما تفجّرت ينابيعها ولما كُتب لها البقاء والاستمرار الذي تعرفه الآن... والقرآن الكريم نفسه له لسانه العربي الخاص به، المستقل عن اللسان العربي العام»[1] والقرآن الكريم يتصل باللسان العربي كما يشاء، وينفصل عنه عندما يريد، ويُهيمن عليه في سائر الأحوال، وما التحدي والإعجاز بالنظم والأسلوب والبلاغة والفصاحة إلا بعض مظاهر الانفصال عن لسان العرب»[2]

واللسان القرآني ينفرد بمنهجه الخاص في استثمار موارد اللغة والبلاغة ويؤلف لنفسه معجمًا خاصًّا يجعله حجة على غيره وليس لغيره أن يكون حجة عليه «ولو جاء القرآن مثل كلام العرب في الطريقة والمذهب، وفي الصفة والمترلة، لما صلح أن يكون

[1]– عبد الرحمان بودرع: الخطاب القرآني ومناهج التأويل، الرابطة المحمدية للعلماء: الرباط، ط1: 1435هـ–2014م، ص 102

[2]– طه جابر العلواني: لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، ط1: 2006م، ص: 19–20

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

سببًا لِما أحدثه، ولذهب مع كلام العرب، ثم لَتدافعته العصور والدّول إن لم يذهب، ثمّ لبقي أمره كبعض ما ترى من الأمور الإنسانية، لا ينفرد ولا يستعلي»[1]

والقرآن كما نص في مواضع متعددة على أنّه مُصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فهو– أيضًا– مهيمن على لغة العرب وقوانينها وأساليبها، وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ أصول التفسير البياني لن تكون إلا في ضوء مبدأ الهيمنة والعلو والحاكمية «فهيمنة اللسان القرآن وتحكمه وظهوره على لسان العرب صورة من هيمنته العامة على الكتب والشرائع قبله، ومن هذه الصفة يمكن أن تُستمدّ أصول التفسير اللغوي للقرآن الكريم وأصول الفهم والبيان والتّبيُّن، ومن مظاهر الهيمنة المذكورة أنّه لّما نزل القرآن الكريم أضاف إلى العربية ما لم يكن فيها من غنى في المعجم، وقوة في التعبير، وتوسّع في الدلالات المجازية والاستعارية، واشتقاق وتوليد في الصيغ الصرفية، وتعريب للمولد والدخيل... أو بمعنى آخر: عندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب فجّر ما بداخلها من طاقات وبثّ فيها كل القدرات والإمكانات التي تمكّنها من استيعاب الخطاب القرآني، ولو لم ينزل بها لما تفجّرت ينابيعها ولّما كُتب لها البقاء والاستمرار الذي تعرفه الآن، لأنّها لسان قوم لهم لسان عام، ويندرج تحت اللسان لغات، والقرآن الكريم نفسه له لسانه العربي الخاص به، المستقل عن اللسان العربي العام، ليتصل باللسان العربي كما يشاء، وينفصل عنه عندما يريد، ويهيمن عليه في سائر الأحوال، وما التّحدي والإعجاز بالنّظم والأسلوب والبلاغة والفصاحة إلا بعض مظاهر الانفصال عن لسان العرب»[2]

[1]– مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي بيروت، ط8، 1420هـ–1999م ص: 240

[2]– لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، ص: 19–20

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

إنّ إعجاز القرآن لا يكمن في إيجاد لغة من لا شيء، وإلا انفصل بنفسه وبتعاليمه عن البشر، أيّا كانت لغتهم وإنّما في بناء لغة جديدة على أسس اللغة القديمة نفسها، والتحليق بعد ذلك في فضاءات واسعة لم تعرفها أو تصل إليها اللغة التقليدية»[1]

2– مفهوم النّسق في مؤلفات السامرائي:

لم يُفرد السامرائي في مؤلفاته عنوانا مستقلا في "نسق القرآن" إلاّ أنّ تردد المصطلح في مجمل مؤلفاته يمنح فكرة ضافية عن المقصود منه، إذ أنّ أغلب مباحثه تشير إلى هذا المعنى وتشتغل ضمن إطاره، ولا يكاد يخلو مصنّف من مصنفاته من استحضار مفهوم النسق وما يتصل به من مباحث؛ فهو الأصل الأول لأصول التفسير البياني للقرآن الكريم، وما يندرج في إطاره من مباحث، فالتفسير البياني في نظر السّامرائي هو "التفسير الذي يُبيّن أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزءٌ من التفسير العام تنصبُّ فيه العناية على بيان أسرار التعبير من النّاحية الفنيّة كالتقديم والتأخير، والذّكر والحذف، واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلّق بأحوال التعبير"[2]

ولا شك أنّ كل محاولة لقراءة الآيات الكونية لا تستطيع القفز فوق أدوات اللغة وقوانينها، وعاداتها في التعبير، فجاءت فكرة النسق القرآني حاضرة في كل الجوانب الإجرائية لدراسات السامرائي، إذ لم يُفرد موضوعًا بعينه بالدراسة البيانية وعيًا منه بمدى العلائق والروابط التي تحكم موضوعات القرآن داخل السورة الواحدة وعلاقاتها بمواضيع مشابهة في سور أخرى، وما يُقدّمه ذلك على المستوى الدلالي لكل موضوع، وقدم في

[1]– المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي، ص: 90.

[2]– صالح فاضل السامرائي: على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ– 2002م. ص:7

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

عنوانه المسمى: "على طريق التفسير البياني" نموذجًا هامًّا للنّظر الكلي للقرآن دون الاقتصار على موضوع بعينه، إذ اتّسم منهجه البياني بدراسة السورة بشتى مضامينها، وهو ما يعكس وعيه العميق بأهمية النّظم في كل مقاربة نصيّة للقرآن الكريم.

والوعي بنسق القرآن يحتاج إلى العلم "بدقائق اللغة وما تؤديه التقديرات المختلفة إلى اختلاف في المعاني" إلى جانب ما سبق قوله من مباحث البلاغة "فلا يجوز لمن ليس له علمٌ واسعٌ بكل ذلك أن يُمسك قلمه ليُفسّر كلام الله"[1] فعدم المراهنة على خصائص اللغة القرآنية، والسعي نحو تحطيم المعايير والقواعد في التفسير هو ضرب من تحريف النص بصفة عامة والقرآني بصفة خاصة.

ويجعل السامرائي السياق الحكم الأول على اختيار الكلمات وانتظام الآيات، وما يرتبط بذلك من مباحث تندرج ضمن هذا الإطار، وعدم النّظر فيه هو سبب الخطأ وعدم الدقة في الحكم وجعل ذلك " من ألزم الأمور التي لا يستغني عنها المفسّر عمومًا والمفسّر البياني على الخصوص "فبالسياق تتضح كثيرٌ من الأمور ويتضح سبب اختيار لفظة على أخرى وتعبير على آخر ويتضح سبب التقديم والتأخير، والذكر والحذف ومعاني الألفاظ المشتركة"[2]

وحديث السامرائي عن السياق القرآني وتمثّله في التفسير ينبئ عن وعي عميق بخصائص البنية النصية للسورة القرآنية، فهو لا يكاد يقف على معنى من معاني الكلمة أو الآية إلاّ بعد النّظر في سياقها داخل السورة وفي علاقاتها بغيرها من الآيات المتشابهة في القرآن عمومًا، ومردُّ ذلك إلى أنّ التعبير القرآني "تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل

[1]– المرجع السابق، ص: 9

[2]– المرجع نفسه، ص 12

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

حرف فيه وُضع وضعًا فنّيا مقصودًا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كلّه"[1]

واعتبار جهة النّظم لا تتمّ به فائدة إلاّ بعد استيفاء جميع السورة بالبحث والتأمّل، وما قدّمه السّامرائي من مقولات في هذا الإطار يجعل مادته في طليعة الجهود الحديثة والمعاصرة التي اعتنت بالنظر الكلي للقرآن بالتركيز على الأنساق والروابط بين أجزاء النص وتراكيبه.

3– الآيات الكونية:

اتجهت الدراسات القرآنيّة إلى الاهتمام بظواهر الكون وأجزائه في ظل ضغط الحاضر واستعلاء علوم العصر والكون هو "ما خلقه الله من الأشياء المنظورة، وهو عالم مُحس متشيّء له واقعية في الخارج، ولهذه الأشياء صفات وكيفيات وأحاسيس تتأثر بها حواسنا ويصور لنا إدراكنا الحسي في الذهن فكرة عنها، وإن كانت تلك الأشياء تبدو لأذهاننا على غير ما هي عليه في الواقع، لأنّها تتحول سريعة وتتغير وإن تراءت لحسّنا كأعيان ثابتة ساكنة"[2]

والكون مركّبٌ في وجوده من أجزاء متعددة على نحو تنظيمي مُعيّن يستنتج غايات هامة للإنسان، وكل جزء من أجزائه يندفع إلى تحقيق غايات مُعينة بالتآلف مع الأجزاء الأخرى، وكذلك مجموع الأجزاء تندفع إلى تحقيق غايات نوعيّة ضمن شروط دقيقة لو تخلف بعض منها لَما تحققت تلك الغايات ولدبّ الفساد فيها"[3]

[1]– صالح فاضل السامرائي: التعبير القرآني، دار عمار: عمّان، ط4: 1427هـ–2006م ص: 2

[2]– أبو الفيض المتوفى، كتاب الوجود: مطبعة الحجازي – القاهرة 1947م، ص: 13.

[3]– محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية: دار الفكر – بيروت، ط5 ، ص: 92

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

والتعريف الاصطلاحي للكون ما فتئ يتوسع من زمن لآخر، ويأخذ معاني جديدة نظرا لارتباطه بالسياق الثقافي للشعوب وهو محيط لا يعرف التوقف أو النهاية أو الكلمة الأخيرة بل إنّ مبحث الكون والوجود لثقله وحضوره اللافت في مسائل الخلق والعقيدة قد اكتسب اهتماما بالغا، جعل مفهوم الكون يأخذ منحى تصاعديا من التطوير والتعميق، تأثّرا بالخلفية التي تفسره"[1]

وارتبط تعريف الكون في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة بما تمليه ظروف العصر وضغوطه، وما وصل إليه الغرب من نتائج هامة في أبحاثه الفلكية، وشكّل ذلك خلفية معرفية حتى بالنسبة للمهتمين بهذا المجال في إطاره الديني، فهو في نظر زغلول النجار: "ذلك النظام الشامل للأجرام السماوية المدرك منها حسيّا، وغير المدرك، أشكالها وأحجامها، كثافتها المتباينة، مادتها وصفاتها وأبعادها، وقوى الترابط بينها، وفق ذلك يأتي التفكير في كيفية نشأة الكون ومراحل خلقه، وتقدير ما مضى من عمره، والتأكيد على حتمية زواله وفنائه، واستبداله بكون غيره في مستقبل الحياة الآخرة الذي لا يعلمه إلاّ خالق هذه الأكوان، ومبدع هذا الوجود[2]

وليست قيمة الآيات الكونية متمثلة في مجرد ذكرها في القرآن فحسب، لأنّ الكتب السماوية السابقة قد ذكرتها هي الأخرى، ولا في وفرة مادتها فحسب، ولا في القسم بها فحسب، بل في طريقة اشتغالها في القرآن ضمن نسق غير مألوف، لا تحيا فيه

[1]– ينظر محمد حدبون: نشأة الكون وفناؤه في القرآن الكريم: دراسة في المنهج المعرفي على ضوء العلم الحديث، رسالة دكتوراه، إشراف: رمضان يخلف، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 1434هـ–2013م، ص: 335ص.

[2]– زغلول راغب النجار: نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون، جمعية المحافظة على القرآن الكرم، عمّان، 2009م، ص: 25.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

منفردة مُنعزلة، بل تستمد روحها من كل الظواهر النصية التي تحيط بها داخل السورة القرآنية الواحدة، وجملة السور القرآنية عموما، وإن سيقت متجاورة مع موضوعات أخرى يظن التباعد والانفصال وغياب الانسجام بينها، فأعلى درجات الاتصال بين موضوعات القرآن تكمُن فيما يبدو منها منفصلاً، وذروة التقارب الدلالي بين الآيات تظهر فيما يبدو منها مُبتعدًا؛ فالقرآن لّما يعرض موضوعاته على العقل بهذا الشّكل فهو يُؤسس لمنهجية معرفيّة غير مألوفة، لا تنكشف معالمها إلاّ بعد تدبّر كبير وتأمّل مستمر، وتبحّر في المعرفة بلغة العرب وأساليبها في التعبير، وفهم دقيق لما يصوغه الزمن من إشكالات واستفهامات... ولقد استشعر القدامى خطورة هذا المسلك، وصعوبة خوضه، نظرًا لرقي النص القرآني نظمًا وتأليفًا، وما يحمل هذا البُعد في جوهره من خصائص تؤهله ليكون وجهًا هامًّا من وجوه الإعجاز القرآني– إن لم يكن أهمها على الإطلاق– وأنتج هذا التوجّه مقولات يمكن أن تكشف عن ملامح البناء النصي في القرآن، وما يتعلّق بذلك من ظواهر، مع اختلاف أساليب التعبير عنها وحَجم تعاطيها عند أصحابها.

وترتبط هذه الرؤية أساسًا بفكرة التحدي في القرآن الكريم، إذ لم يكن التحدي بالإتيان بآية أو بمجموعة من الآيات، لأنّ الآية الواحدة وإن بدا لنا تمام معناها في حال إفرادها فإنّ لها من الدّلالات والأسرار في تجاورها مع غيرها من الآيات الأخرى، ما يؤكّد أهمية الرؤية الكلية الشاملة لمضامين السور القرآنية، والآية الواحدة – وإن اكتملت عناصر الجملة فيها– فهي ليست وحدة دلالية مستقلة عن غيرها، ولهذا السبب جاء التحدي بسورة أو أكثر، ليلفت النّظر إلى أهمية الوعي بنسق القرآن واتّساق ألفاظه وتراكيبه وانسجام معانيه ودلالاته في إطار السورة الواحدة أو مجموع السوّر.

4– نماذج من تفسير السامرائي للآيات الكونية:

النموذج الأول:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة: ١٧]

ورد في مواطن من القرآن الكريم أنّ لله ملك السموات والأرض و"ما بينهما" وفي مواطن أخرى دون قوله "وما بينهما".

والمتتبع لسياق الآيات القرآنية يجد أنّ " كل موطن ذكر فيه أن له ملك السماوات والأرض **وما بينهما** إنّما جاء تعقيبا على القول في الله ما لا يليق به سبحانه كقول النصارى: إنّ المسيح ابن الله أو هو الله، أو قول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، فجعلوا أنفسهم أبناء الله، فيعقب على ذلك بقوله: إنّ له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فلِمَ يتخذ ولدًا؟

إنّ الذي يتخذ ولدا إنّما به حاجة إلى ذلك أو يشعر أنّ به حاجة فيتخذ الولد لسد الحاجة، أما الله فإنّ له ملك السماوات والأرض وما بينهما فهو ملكهما ومالكهما فلِمَ الولد؟ فيذكر سعة ملكه في نحو هذا الموطن لبيان أنّ قولهم باطل وأنّه غير محتاج إلى الولد، أمّا ما لم يرد في سياق ذلك فلا يذكر "ما بينهما"

ومن الطريف أن نذكر أيضا أنّ كل موطن ذكر فيه "ما بينهما" إنّما هو في سياق الكلام على ثلاث ملل وهُنّ: اليهود والنّصارى والمسلمون، بخلاف ما لم يذكر ذلك، فاليهود والنّصارى والمسلمون ثلاثة، والسماوات والأرض وما بينهما ثلاثة فناسب بين الملل الثلاث ما ذكره من السماوات والأرض وما بينهما"[1]

[1]– على طريق التفسير البياني، ج1 ص: 237–238

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112-4040، ر ت م د إ: 2588-X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404-438 تاريخ النشر:05-08-2020

ولو اكتفى القرآن بذكر ملكية السموات والأرض دون "ما بينهما" لقال قائل أنّ الملكية تختص بالسموات والأرض دون غيرهما، وفي التعبير بـــ "ما بينهما" دلالة على عموم الملكية مِن البشر ومِن غيرهم.

قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤]

جاء في هذا الموضع ذكر السماء بصيغة المفرد، وجاء في الفرقان بلفظ الجمع قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦]

والسبب في ذلك – والله أعلم- أنّ " السّماء أوسع من "السموات"، فهي تشملها وغيرها، فجاء في الأنبياء ذكر القول، وفي الفرقان بذكر السّر لأنّ القول أوسع من السر، فهو قد يكون سراً وقد يكون جهراً، فلمّا وسّع وقال﴿ يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ وسع وقال﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولما ضيّق وقال﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ قال ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[1]

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله في موضع آخر: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]

[1]- ينظر التعبير القرآني، ص: 42-43

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

فجاء في آية آل عمران بجمع السموات، وفي آية الحديد بإفرادها، ولّما ذكر في آية آل عمران لفظ السموات لم يأتِ بكاف التشبيه، لأن السماء أعم وأوسع من السموات، وجاء بكاف التشبيه ليشابه وفي نسق الآيتين ما يوضح ذلك فقد قال في آل عمران: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

فذكر المتقين المنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس، وذكر في آية الحديد المؤمنين بالله ورسله، ولا شك أنّ المؤمنين أعم وأشمل من المتقين، والتقوى تشكّل دائرة صغيرة في مساحة الإيمان فهي أخص منها، فناسب ذِكر السماء في آية الحديد لأنّه ذَكر ما هو أوسع وأعم، بخلاف آية آل عمران حيث ذكر " المتقين" مع "السموات" لأنّه أقل وأخص.

ثم إنّ هناك فرقًا آخر هو قوله في آل عمران: ﴿وَسَارِعُوٓاْ ﴾ وقوله في الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ ﴾، لّما ذكر الجنة بأوسع صفة لها، وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها، وذَكر فضله العظيم على عباده قال:﴿ سَابِقُوٓاْ ﴾ وفي الآية الأخرى:﴿وَسَارِعُوٓاْ ﴾ وذلك لأنّ كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان واحد تستدعي المسابقة لا مجرد المسارعة، فذكر في آية سورة الحديد (المسابقة) وهي تشمل المشاركة وزيادة، وذكر (السماء) وهي تشمل السموات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله، وهم يشملون المتقين وزيادة، وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة، فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ"[1]

[1]– ينظر المرجع السابق، ص 42–43

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

والقرآن يقدم الألفاظ ويؤخرها حسب ما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام – مثلا– متدرجا حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا ...وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور، قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فقدم الليل لأنه أسبق من النهار، وذلك لأنّه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدّم الشمس على القمر لأنّها قبله في الوجود...ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور... قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وذلك لأن الظلمة قبل النور"[1]

النموذج الثاني:

قَالَ تعَالَىٰ:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ ﴾ [الرعد: ٢]

من أسرار النظم في الآية الكريمة قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ وفي سورة لقمان: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ يُبين السامرائي الفرق بين ورود الفعل "خلق" في آية لقمان، و"رفع" في آية الرّعد قائلا: "كلّ تعبير مناسب لمكانه، لو نظرنا في الرعد نجد قبلها ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ الإنزال إنما يكون من فوق، أي من مكان مرتفع فناسب رفع السموات، وقال بعدها: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ

[1] – التعبير القرآني، ص: 53–54

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾العرش فوق السّموات إذن ناسب رفع السموات، ثم قال:﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾وهي من الأجرام السماوية المرتفعة إذن يناسب رفع السموات، أمّا في لقمان فليس فيها شيء من ذلك بعد هذه الآية في لقمان قال: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ خلق الله مناسب لخلق السموات، إذن السياق في الرعد يناسبه رفع السموات والسياق في لقمان يناسبه خلق السموات فكلّ تعبير في مكانه " [1]

وذكر في هذه الآية تسخير الشمس والقمر دون ذكر "لكم" بخلاف ما ورد في لقمان: "لأنّ المقام هنا ليس مقام تعداد النّعم كما في الآية الأولى، وإنّما في بيان آيات الله... ثم إنّه من ناحية أخرى قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فذكر أنّ لهما أجلا مُسمى ولا يناسب ذلك ذكر النّعم، فإنّ من تمام النّعمة الدوام، وهنا ذكر الانقطاع، ولذا حيث قال: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾ لم يقل: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾"[2]

وفي قوله تعالى:﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾عُدي الفعل "يجري" في هذه الآية بحرف الجر "إلى" وفي مواضع أخرى بـــ "اللام" "وممّا ذُكر في الفرق بينهما أنّ (إلى) تفيد انتهاء الغاية، و(اللام) تفيد الاختصاص وتفيد التعليل، فمعنى (يجري لأجلٍ) أنّه يجري لهذه الغاية أي لإدراك الأجل المسمى كما تقول: يجري لغرض وصول الهدف وبلوغه، ومعنى (يجري إلى أجل مسمى) أنّه يجري إلى أن يبلغ الأجل المسمى؛ ومجيء (إلى) في هذه الآية أنسب لأنّها جاءت في سياق الآيات المُنبّهة على الحشر والإعادة " [3]

[1]– ينظر على طريق التفسير البياني، ج2 ص 299
[2]– ينظر المرجع السابق، ج2 ص 366
[3]– المرجع نفسه، ج2 ص 367

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

النموذج الثالث:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾ [الحديد: ٤ – ٦]

ذكر السامرائي من وجوه البيان في الآية الكريمة أنّه ﷻ قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾و لم يقل: (ما يُولَج)، وقال:﴿ مَا يَخْرُجُ ﴾و لم يقل:(ما يُخرَج)، وقال: ﴿ مَا يَنزِلُ ﴾ و لم يقل: (ما يُنزَل) وقال:﴿ مَا يَعْرُجُ ﴾ و لم يقل: (ما يُعرَجُ) وهذا أدل على العلم، لأنّ الفرد في العادة يعلم ما يفعله هو ولكنّه يجهل ما لم يفعله هو، أمّا ربنا فقد أخبر عن نفسه أنّه يعلم ما يلج وما يخرج وما ينزل وما يعرج، وهذا أدل على العلم" [1]

وفي ترتيب جمل الآية "قدّم ما يلج في الأرض على ما يخرج منها، وقدّم ما ينزل من السماء على ما يعرج فيها، فقدّم ما ينزل وما يلج، وأخّر ما يخرج وما يعرج، ذلك أنّ كثيرا مما ينزل من السماء قد يلج في الأرض ثم يخرج بعد ذلك من الأرض ما يخرج بسببه أو بغيره من الأسباب كالنباتات والينابيع وغيرها، فالولوج قد يكون سببا للخروج، والذي يخرج من الأرض ومحيطها قد يعرج إلى السماء، فالذي ينزل من السماء قد يلج في الأرض، والذي يخرج من الأرض ومحيطها قد يعرج إلى السماء، وذلك أنّ قوله: ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ يحتمل معنيين، الأول: أنّه يخرج من داخلها كالنبات

[1] – المرجع نفسه، ج1 ص: 243

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

والحشرات وغير ذلك، والآخر أنّه يخرج من دائرتها ومحيطها، وبدأ بالأرض وأخّر السماء لأنّ السياق في الكلام على أهل الأرض وهو قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهي مَسكنهم"[1]

النموذج الرابع: ومِن المصطلحات الكونية التي وقف عندها السامرائي "الضياء والنور" وبيّن الفرق الدقيق بينهما من خلال مواطن ورودهما، وجعل " النّور أعم من الضّياء، وأنّ الضياء قسم منه أو حالة من حالاته... فسمّى الله نفسه نورًا لا ضياءً، لأنّ الضياء حالة من حالات النور، وهناك حالات من حالات النّور لا نعلمها، الله يعلمها هي أعلى من الضياء، فلا يصح قصر المطلق على جُزئيّة "[2] وجاء ذكر "الضوء والنور" في سياق حديث القرآن عن أهل النفاق: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]

والتعبير بلفظ "النور" في الآية أبلغ مِن "الضوء" لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، والنّور أعم من الضوء، إذ يُقال للقليل والكثير"[3] أمّا الضوء فلا يقال إلا للكثير" والغرض من قوله تعالى:

[1]– المرجع السابق ج1 ص: 243

[2]– فاضل صالح السامرائي: أسئلة بيانية، مكتبة الصحابة: الشارقة–الإمارات،ط1: 1429هـ– 2008 م، ج1 ص 199.

[3]– بدر الدين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: محمد محمد داود، دار المنار للنشر والتوزيع، ط1: 1418هـ–1998م، ص:55، جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن: تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، 1969م، ج1، ص: 429

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾إنما هو إزالة النور عنهم أصلا، ولذلك ورد عقيبه قوله تعالى:﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ لكن إذا قيل: ذَهب الله بضوئهم لأوهمَ الذهاب بالزيادة فقط، من دون الأصل، فلمّا كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته" [1]

جاء في الأنبياء أنّ التوراة:

﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وهم أخص ممن ذُكر في الآيتين الأخريين، فقد قال في المائدة:

﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾أي: اليهود، والمتقون أخص من اليهود، وهم جزء منهم، وقال في آية الأنعام: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فجعله للناس، وهم أعم من المتقين المذكورين في آية الأنبياء، والمتقون جزء منهم؛ فجعل النّور الذي هو أعمّ من الضياء للذين هم أعم، وهم اليهود والنّاس، وجعل الضياء الذي هو أخص للذين هم أخص، وهم المتقون الذين يخشون ربهم، وهم من الساعة مشفقون، فناسب العموم العموم، والخصوص الخصوص" [2]

[1]– ابن قيم الجوزية: التفسير القيم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بيروت، ط1: 1410هـ 1990م، ص:127

[2]– المرجع السابق، ج1 ص: 201

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

وإنّ المتقين إنّما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو النّاس، وحالهم أتم وأكمل، فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء، فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النّور"[1]

النموذج الخامس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٦ – ٤٠]

ومعنى ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾ أنّ لها حدًّا تنتهي إليه، سواءً كان ذلك الحد زمانا أم مكانا، فقد يقصد بالمستقر اسم مكان أو اسم زمان وكل ذلك مراد، فهي لها مستقر زماما ومكانا فهي تجري في فلك لا تتعداه فذلك هو حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه.

وأسند فعل "الجري" إلى الشمس ثم قال:﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لئلا يظن أنها تجري من دون تقدير أو تدبير، فإنّها تجري بتقدير العزيز العليم على وفق سُنّة وضعها لها خالقها، وبذلك أبطل أن تكون حرة مختارة وإنّما هي خاضعة لمن جعل لها مستقرا لا تعدوه ولا تتخطاه، فأبطل بذلك صحة أن تكون معبودة أو أن تُتَّخذَ إلها"[2]

﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس: ٣٩]

[1]– المرجع نفسه، ج1 ص: 201

[2]– على طريق التفسير البياني، ج2 ص 135.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

لّما ذكر القمر فقال:﴿ قَدَّرۡنَٰهُ ﴾ أسند فعل التقدير إلى نفسه ﷻ واستغنى عن إعادة وصف العزيز العليم؛ وفي التعبير بلفظ عاد دون صار إشارة إلى أنّه: "يعود إلى هذه الحالة في كل شهر، وليس في (صار) إشعارٌ بهذا المعنى"[1]

قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]

التعبير بالشمس والقمر وبالليل والنهار في الآية يعبر عن حقيقة علمية ثابتة " ذلك أنّه في كل لحظة تشرق الشمس على مكان وتغرب من مكان، فالذي تشرق الشمس عليه يكون نهارا والذي تغرب منه يكون ليلا، فالليل أمامه نهار يأتي عليه في كل لحظة وخلفه نهار يأتي عليه، وكذلك النهار"[2]

وفي ذلك دليل على أنّه لا يمكن لأحد من الشمس والقمر أن يسبق الآخر، فلِكلّ منهما فَلكُه الذي يدور فيه، و لم تأتِ العبارات في الآية على نسق واحد، فجاءت الأولى بصيغة الفعل "تدرك" والثانية بصيغة الاسم "سابق" ذلك أنّ "قوله:﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ ﴾قد يُفهم منه أنّ الليل سابق فقال: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾فردّ هذا التصور وهو أعدل التعبيرات وأبلغها"[3]

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾جاء التعبير بلفظ "كلٌّ" بدل "جميعًا" للدلالة على كل فرد حتى تستغرق جميع الأفراد، فقولنا: (رضوا بذلك أجمعون)

[1]– المرجع نفسه، ج2 ص: 135
[2]– المرجع السابق، ج2 ص: 136
[3]– المرجع نفسه، ج2 ص: 136

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

يفيد أن مجموعهم رضي بذلك، وأمّا قولك: (رضوا بذلك كلهم) فيفيد أنّ أفرادهم رضوا بذلك، والنتيجة واحدة لأنه إذا رضي كل أفرادهم فقد رضي مجموعهم، فـ (أجمعْ) تشير إلى العموم ابتداءً، و(كلّ) تشير إلى الأفراد حتى تستغرقهم"[1]

ومعنى ذلك أنّ لكل من الشمس والقمر فلكه الخاص الذي يسبح فيه، والفلك يُشعر باستدارة السماء، وفي الآية إشارة إلى أنّ حركة الكواكب والأجرام دائرية، أي هي تدور في مسار لها مُحدّد وليست منطلقة في الفضاء على غير هُدًى"[2]

وإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء، لتتزيل الأجرام منزلة العاقل ... ومن جهة أنها تسبح في فلك خاص لا تتعداه كأنها شخص عاقل ملتزم بما حُدَّ له، فهو لا يتعدى حدوده، فلا يشذ ولا يخرج عن مداره ولا يبغي بعضه على بعض، بل إنّ كلًّا منها يعرف مكانه وفلكه وحدوده" [3]

ولو قال: "كُلٌّ في فلك يسبحُ" مجردة من ضمير العقلاء، لانصرفت الأفهام إلى أنّ فعل السباحة إنّما هو للفَلك دون الشمس والقمر، وعلى هذا يكون ضمير العقلاء "الواو" قد أزال فهم ما هو ليس المقصود من الآية.

النموذج السادس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧٢ – ٧٣]

[1]– صالح فاضل السامرائي: معاني النحو، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ج4 ص: 525.

[2]– ينظر على طريق التفسير البياني، ج2 ص139.

[3]– المرجع نفسه، ج2 ص 139

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

يرد في القرآن الكريم التعبير بـــ (أو لم) بالواو بعد همزة الاستفهام ويرد بـــ (ألم) دون واو، وذكر النحاة في الفرق بينهما أنّ " (أو لم تر) بالواو إنّما تكون لِما هو مُشاهد و(ألم تر) إنّما تكون في الاستدلال بالنّظر العقلي، وقالوا أيضًا: أنّ (أو لم تر) يُستعمل فيما كثر أمثاله في الحياة مما هو مشاهد، أمّا (ألم تر) من دون الواو فهو من باب ما لا يكثر مثله" [1]

وفي قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أسند الضمير إلى نفسه و لم يبنهِ لِما لم يُسمَّ فاعله مثلما جاء في مواضع أخرى مثل قوله تعالى:﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٢٨]

وذلك أنّ هذا من باب التفضّل والإنعام، والقرآن الكريم يسند النعمة والتفضّل والخير إلى نفسه سبحانه، ثم إنّه لو بناه للمجهول لم يدل على أنّ الخالق هو الله سبحانه، ولا يتناسب ذلك مع السياق الذي وردت فيه الآية والذي أراد الله فيه أن يظهر آياته ونعمه على خلقه ليعبدوه ويوحدوه فتكون الجهة مجهولة"[2]

وفي سياق الآيات ما يناسب التعبير بإسناد الضمير إلى الخالق، دون بنائه للمجهول، حيث ورد بعدها قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾وإذا كان الفاعل مجهولاً كانت الجهة التي يوجه إليها الشكر مجهولة فلا يعرفون الجهة التي ينبغي أن يقدموا لها الشكر "[3] وأسند الخلق في هذه الآية إلى ضمير المتكلم، وأسنده في آية النحل إلى ضمير الغائب، فقال:﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥]

[1]– المرجع السّابق، ج2 ص 246
[2]– على طريق التفسير البياني، ج2 ص 248
[3]– المرجع نفسه، ج2 ص: 248

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

والجواب عن ذلك أنّ سياق سورة ياسين مبني على الإسناد إلى ضمير المتكلم، وجاء سياق آية النحل بالإسناد إلى ضمير الغائب.

ثم إنّ ما ورد في يس أكثر تكريمًا وتفضّلاً مما ورد في النّحل فأسنده إلى نفسه، وهذا هو الخط العام في إسناد النّعمة والخير والتفضّل ...فقد ورد ضمير المتكلم الذي يعود على الله سبحانه أربع مرات في يس وهي: إنّا، خلقنا، أيدينا، ذللنا.

و لم يرد ضمير الغيبة الذي يعود على الله سبحانه إلاّ مرة واحدة في النّحل وهو الضمير المستتر في (خلقها)

ثم لننظر إلى مواطن التكريم في الموضعين:

قال في يس خلقنا لهم فجعل الخلق لهم، في حين قال في النّحل: والأنعام خلقها و لم يقل (لكم) وإنّما قال لكم فيها دفء

قال في يس مما عملت أيدينا للدلالة على الاهتمام والتكريم كما تقول: هذا صنعته لك بيدي، و لم يقل مثل ذلك في النّحل.

قال في يس فهم لها مالكون فملكها لهم، و لم يذكر في النّحل أنّه ملّكها لهم.

قال في يس إنّه ذللها لهم فقال وذللناها لهم و لم يقل مثل ذلك في النّحل.

ذكر في يس أنّ منها ركوبهم، وذكر في النّحل أنّها تحمل أثقالهم في الأسفار.

ذكر في يس أن لهم فيها مشارب و لم يذكر مثل ذلك في النّحل.

ذكر في يس والنحل أنهم منها يأكلون.

ذكر في يس والنّحل أن لهم فيها منافع.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

ذكر في النحل أنّ لهم فيها دفئًا و لم يذكر ذلك في يس، وهو يدخل في المنافع التي ذكرها في يس، ذكر في النّحل أنّ لهم فيها جمالاً حين يريحون وحين يسرحون"[1]

والحاصل أنّ إسناد الضمير إلى الله تعالى فيه مزيد إنعام وتفضل وإكرام، إذ لا يمكن القول بحال من الأحوال أنّ سبب مجيء الضمير ههنا بشكل وفي موضع آخر بشكل آخر هو من باب تنويع الخطاب والتفنّن في التعبير، فنسق القرآن نظام صارم لا يقبل التداخل أو الاستبدال.

النموذج السابع:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٨٠]

جاءت الآية في سياق استبعاد أهل الكفر للإحياء بعد الإماتة، فلفت القرآن أنظارهم إلى أمرٍ أدعى الاستبعاد والعجب، وهو أن جعل لهم من الشّجر الأخضر نارًا يوقدون منه، وهو أمرٌ مستبعدٌ في المألوف، لأنّ الماء تُطفئ النّار فذكر قدرته على ما هو مستبعد في تفكيرهم مما يعرفونه ويألفونه، والمقصود بالشجر هنا عموم الشّجر إلاّ أنّه أظهر ما يكون ذلك في شجرتي المرخ والعفّار فيؤخذ قضيب كالسواك من كل شجرة من هاتين الشجرتين فيسحق المرخ على العفار وهو يقطر ماءً فتنقدح النّار وهو ما يعرفونه ويستعملونه في الوقود وهو أعجب شيء وأبعده في الذّهن"[2]

بدأ بالاستدلال بخلق الإنسان من نطفة، ثم استدلّ بما هو مستعجب مما حولهم وهو اتقاد النّار من الشّجر الأخضر ثم ترقّى إلى خلق السموات والأرض وهو أعظم

[1]– المرجع السابق، ج2 ص: 250–251

[2]– المرجع السابق ج2 ص 275

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

وأعجب، ذلك أنّه ذكر للإنسان مبدأ خلقه منه وهو النّطفة، وذكر للنّار أصلاً تخرج منه وهو الشّجر الأخضر، ولم يذكر للسموات والأرض شيئًا خلقهما منه، وهذا أعظم وأعجب فإنّ الخلق من العدم المحض أعجب وأدل على القدرة، وعلى هذا فلا داعي لاستبعاد البعث بعد الموت فإنّ أجزاءهم موجودة، وأنّ جمعها وإعادتها أيسر من خلق شيء ليس له مادة ولا وجود ابتداءً وهو خلق السموات والأرض"[1]

وجاء بعد هذه الآية قوله تعالى:﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] ولم يقل: (على أن يُعيدهم) وذلك ليدلّ على أنّه قادرٌ على ما هو أعجب وهو أن يُنشئ خلقًا آخر أمثال هؤلاء من غير نُطفٍ ولا أجزاء متفرّقة كما خلق السموات والأرض ابتداءً من غير شيء، فذكر ما هو أبعد في الخلق وأعسر من الإعادة "[2]

النموذج الثامن:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩]

يُشير السامرائي إلى قاعدة هامة في تعدية الفعل "رأى" فيقول: "تستعمل العرب هذا التعبير بمعنيين: **أحدهما:** هو السؤال عن الرؤية البصرية أو القلبية، كأن تقول: ألم ترَ خالدًا اليوم؟ أو تقول: ألم تر الأمر كما رأيتُه؟ و**الآخر** بمعنى: (ألم تعلم) و(ألم ينتهِ علمك) وهي كلمة تقولها العرب عند التعجيب، قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ

[1]– المرجع نفسه، ج2 ص 276

[2]– المرجع نفسه، ج2 ص 276

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النحل:٧٩] وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[الشعراء: ٧] فهناك فرق بين القول (ألم يروا الطير مسخرات) و(ألم يروا إلى الطير مسخرات) فالرؤية الأولى رؤية بصرية، والثانية نظر عقلي وتفكّري، أي: ألم ترَ، فتمتد بك الرؤية إلى ما ذُكر لك من الأحوال، فتعجب من هذا الصّنع الخلاق؟ ونحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء:٧٧] أي: ألم تعجب من حالهم؟ فهناك فرق بين قولك: (ألم تر الذين قيل لهم) وهذا القول، فالأولى رؤية بصرية، والثانية نظر تفكّري، ودعوة إلى العجب من أمرهم، ونحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ الفرقان: ٤٥ وقوله:﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ﴾ [الفجر: ٦]"[1]

وإنّما جاء في هذه الآية ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ ﴾ وفي آية النّحل:﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ النحل: ٧٩ لأنّه " ذكر في آية النّحل أنّ الطير مسخرات، وهو من باب القهر والتذليل، وليس من باب الاختيار، فأسند ذلك إلى الله، أمّا في آية الملك فقد قال: إنهن:﴿ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ ﴾بإسناد ذلك إلى الطير، فهو من باب التمكين للطير، وهو أنسب بالرحمة؛ ذكر في سورة الملك شيئًا من الراحة للطير، وهو قوله: صافات وهو سكون الحركة، فناسب ذلك ذكر الرحمة "[2]

[1]– صالح فاضل السامرائي: معاني النحو، شركة العاتك لصناعة الكتاب: القاهرة، ط2: 1423هـ– 2003م ،ج2 ص 13

[2]– أسئلة بيانية، ج1 ص 172_173

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته – جّل وعلا– على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرّوا بربوبيته احتجّ بها عليهم على أنّه هو المستحق لأن يُعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنّه هو الرّب وحده، لأنّ من اعترف بأنّه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنّه هو المستحق لأن يُعبد وحده.

النموذج التاسع: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾ [التكوير: ١ – ٣]

يَرِدُ في مواضع من القرآن تقديم الاسم بعد "إذا" على الفعل للتهويل كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ [الانفطار: ١ – ٣] " فإنّ في تقديم المسند إليه تهويلاً لا تجده في التأخير، ألا ترى أنّ السماء لم يسبق لها أن انفطرت، ولا الكواكب انتثرت، ولا البحار فُجّرت، ولا الشمس كُوّرت، فهذه الأجرام مستقرّة على عادتها الدهور المتطاولة والأحقاب المتوالية حتى ذهب بعض النّاس إلى أنّها على حالها منذ الأزل، وستبقى كذلك أبدًا ولذلك قدّمها إشارة إلى الهول العظيم والحدث الجسيم الذي يصيب هذه الأجرام، ألا ترى إلى قوله تعالى مثلا: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]كيف أخّر المسند إليه، لأنّ الزلزلة معهودة، مستمرة الحصول، بخلاف ما سبق، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨﴾ [القيامة: ٧ – ٨] ولم يقل: (وإذا القمر خسف) لأنّ خسوف القمر معتاد الحصول، ونحوه بريق البصر" [1]

[1]– معاني النحو، ج2 ص 47.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

إنّ النظرة الكلية الشاملة لنصوص القرآن تنبني على التحقق من دلالة اللفظة القرآنية في بعدها الانفرادي والتركيبي وتمثل معانيها في جميع مواضع وسياقات استعمالها في القرآن الكريم، وهذا المنهج ينبني في عمومه على الانطلاق من الجزء من أجل فهم الكل، فالكل حاكمٌ على الجزء ومهيمنٌ عليه.

الخاتمـــة:

من اللازم أن نشير في الختام إلى أنّنا لم نتعرّض لكل القضايا التي تعلّقت بمفهوم النّسق القرآني في كتب صالح فاضل السامرائي، ولكن توقفنا عند ما هو جدير بأن يشكل ملامح الدراسة النّصيّة في مؤلفاته، وإذا ما أردنا أنْ نَخرُج بخلاصةٍ عن القضايا التي تحدّث عنها يمكن القول بأنّ صالح فاضل السامرائي قدّم نماذج هامة يمكن الاهتداء بها في كل مقاربة نصيّة قرآنية.

– كُل محاولة لفهم معاني الآيات الكونية وأسرارها في القرآن لا بد أن تمرّ عبر قوانين اللغة القرآنية وخصائصها التعبيرية، دون أن يؤدي ذلك إلى الاقتصار على النواحي الفنّية والجماليّة وإهمال مقاصد القرآن وغاياته الكبرى.

– مع ما قدّمته جهود المفسرين والبلاغيين من نماذج هامّة في دراسة نسق القرآن وخصائصه التركيبيّة فهو لا يزال بحاجة إلى بحث مستمر، وجهد متواصل.

– نسق القرآن وطريقة صياغة موضوعاته هو العمود الفقري لنظرية الإعجاز القرآني، إذ لا يمكن لدراسة تهتم بمجال الإعجاز أن تدخل من غير هذا الباب.

– إنّ وجه الإعجاز في آيات الكون ليس لمجرد ذكرها في القرآن فحسب، بل طريقة نسجها وبنائها وأساليب التعبير عنها.

قائمة المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

– ابن قيم الجوزية: **التفسير القيم**، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بيروت، ط1: 1410هـ 1990م.

– أبو الفيض المتوفى، **كتاب الوجود**: مطبعة الحجازي – القاهرة، 1947م.

– أحمد بسّام ساعي: **المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي– فرجينيا: الولايات المتحدة الأمريكية، ط1: 1436هـ 2015م.

– الرماني والخطابي والجرجاني: **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3.

– القاضي عبد الجبار المعتزلي: **المغني في أبواب التوحيد والعدل**: ، ت: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ

– بدر الدين بن جماعة: **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**، تحقيق: محمد محمد داود، دار المنار للنشر والتوزيع، ط1: 1418هـ–1998م.

– جلال الدين السيوطي: **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، 1969م.

– جلال الدين السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي: بيروت، ت ط: 1425هـ–2004م.

– توشيهيكو إزوتسو: **الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم**، ترجمة: هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ط1: 2007م.

– زغلول راغب النجار: **نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون**، جمعية المحافظة على القرآن الكرم، عمّان، 2009م.

– صالح فاضل السامرائي: **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**، مكتبة الصحابة: الشارقة–الإمارات،ط1: 1429هـ–2008م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 404–438 تاريخ النشر:05–08–2020

– صالح فاضل السامرائي: **التعبير القرآني**، دار عمار: عمّان، ط4: 1427هـ–2006م.

– صالح فاضل السامرائي: **على طريق التفسير البياني**، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ– 2002م.

– صالح فاضل السامرائي: **معاني النّحو**: الجزء الثاني: شركة العاتك: القاهرة، ط2: 1423هـ–2003م.

– صالح فاضل السامرائي: **معاني النحو**، الجزء الرابع ساعدت جامعة بغداد على نشره.

– طه جابر العلواني: **لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب**، مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، ط1: 2006م.

– عبد الرحمان بودرع: **الخطاب القرآني ومناهج التأويل**، الرابطة المحمدية للعلماء: الرباط، ط1: 1435هـ–2014م.

– محمد حدبون: **نشأة الكون وفناؤه في القرآن الكريم: دراسة في المنهج المعرفي على ضوء العلم الحديث**، رسالة دكتوراه، إشراف: رمضان يخلف، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 1434هـ–2013م.

– محمد سعيد رمضان البوطي، **كبرى اليقينيات الكونية**: دار الفكر – بيروت، ط5.

– مصطفى صادق الرافعي: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي بيروت، ط8، 1420ه–1999م.

الملتقيات:

– عبد الرحمان بودرع: **من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي**، المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، المغرب. دت.